ملامح بناء الدرس الفونولوجي عند ابن جنّي

بن يحيى طاهر ناعوس [1،*]

الاستـلام: 15/ 06 /2025
التحكيم: 27/ 07 /2025
القبـــول: 28/ 07 /2025

© 2025 University of Science and Technology, Aden, Yemen. This article can be distributed under the terms of the Creative Commons Attribution License, which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided the original author and source are credited.

© 2025 جامعة العلوم والتكنولوجيا، المركز الرئيس عدن، اليمن. يمكن إعادة استخدام المادة المنشورة حسب رخصة مؤسسة المشاع الإبداعي شريطة الاستشهاد بالمؤلف والمجلة.

1 أستاذ اللسانيات وتحليل قسم اللغة العربية. ولاية غليزان جامعة غليزان، الجزائر.
* عنوان المراسلة: naous67@gmail.com

https://doi.org/10.20428/jss.v31i7.2919

ملامح بناء الدرس الفونولوجي عند ابن جنّي

الملخص:

نعرض في هذا البحث السبل العلمية التي اعتمدها ابن جنّي في بناء الدرس الفونولوجي، رغم أنه هو من الأوائل واضعي هذا الدرس الفونولوجي، وعليه يبقى السؤال مطروح: ما أهم الدوافع العلمية التي ساقته إليه؟ وما أهم الخطوات التي أعتمدها في وضع هذه اللبنة العلمية؟ وما أهم الملامح الفونولوجية التي أعتمدها في تأسيس هذا الدرس؟ وما الأسس الفكرية والمنهجية والنحوية التي ركّز عليها؟ هذه أهم الأسئلة التي يُرتكز عليها في الإجابة، وقد اعتمدت المنهج العلمي الوصفي وتحليلي في ذلك.

الكلمات المفتاحية: المنهج، الفونولوجي، الدرس، ابن جنّي، الفكرية.

Features of The Structure of Phonological Lesson According to Ibn Jinni

Ben Yahya Taher Naous[1,*]

Abstract:

In this research, we present the scientific methods Ibn Jinni adopted in constructing the phonological lesson, despite being one of the first to develop it. Therefore, the question remains: What were the most important scientific motivations that led him to it? What were the most important steps he relied on in establishing this scientific foundation? What are the most important phonological features he relied on in establishing this lesson? What are the intellectual, methodological, and grammatical foundations he focused on? These are the most important questions upon which the answer is based. I adopted the descriptive and analytical scientific method in doing so.

Keywords: *curriculum ;phonology ; lesson ; Ibn Jinni; intellectual*

[1] Department of Arabic Language, University of Relizane, Algeria.
* Corresponding Email Address: naous67@gmail.com

https://doi.org/10.20428/jss.v31i7.2919

المقدمة

ملامح الفونولوجيا عند ابن جني

ما انفكت تنتهي الدراسات اللغوية في القرن الثاني والثالث للهجري متواصلة، ونقصد بالتواصل هنا أنها جاءت مكملة، ومستفيدة، ومأثرة ومتأثرة ببعضها بعضا، فبعد وصف الخليل لمخارج الأصوات، جاء سيبويه ليفرق بين هاته الأصوات في شكل ثنائيات متقابلة، على ذلك فصل ما هو مجهور عن ما هو مهموس، على إثر هاته الإفرازات التي تمخضت عن فكر الخليل وتلميذه من بعده، لتتواصل حلقات التطور اللغوي مع ابن جني إذ تناول هذا الدرس بشيء من التمعن والتوضيح والإضافة، قبل هذا علينا التعرف على هذا العالم الذي لامس فكره الفكر اللغوي الحديث مقارنة بأصحابه الفراهيدي وسيبويه، وعليه من هو ابن جني؟

1. حياة ابن جني كرونولوجيًا:

يُعد أول من انطلق بفكرة أنّ اللغة هي أصوات يُعبر بها كل أقوامٍ عن أغراضهم، وعُدّ مفهومه هذا مادة قانونية مازالت سارية المفعول، صاحب هاته الفكرة التي لامست الفكر العلمي الحديث هو" أبو الفتح عثمان بن جني، ولد في حدود سنة عشرين وثلاثمائة للهجرة، في الموصل، ترعرع وأخذ العلم عن مشايخه، وما يهمنا في مقامنا هذا أن نتطرق لعبقرية ابن جنّي وليس إلى ميلاده، وما ذكرناه فقط لتوضيح الفترة الزمنية التي ولد فيها هذا العالم والتي تكللت بدرس لغوي استحدث بعض الأمور التي لم يتطرق إليها سابقوه.

2. الأسس المنهجية لابن جنّي:

وعلى ذلك فمن بين الأمور اليقينية أن لكلّ علم منهجه الخاص به، وما عرف عند ابن جنّي علم لغوي قائم بذاته مؤسس وفق منهجية مضبوطة، فقد كان ابن جنّي حنفي المذهب، إذ يُعرف هذا المذهب بمنهجيته الاستنباطية والقياسية هذا ذكره مصطفى السواحلي في كتابه ابن جنّي ناقدًا: "والأحناف هم أبطال الحرية في الفكر الإسلامي وهم رواد مدرسة الاجتهاد والاستنباط والقياس"[1] .

عنى أنّ ابن جنّي لم يكن استقرائيًا بل كان استنباطيًا، فقد انطلق في فكره من التجريد ليصل به للواقع، وللوصول إلى الواقع حتمًا سيصطدم الباحث اللغوي بهذا الواقع فيضطر إلى القياس ليتماشى فكره والواقع، لذلك انتهج منهج علم الكلام.

عطفًا على ما سبق يُعدّ ابن جنّي "من اللغويين البارزين الذين تأثروا بمنهج المتكلمين في تعاملهم مع الظاهرة اللغوية من حيث استنباطُ العلل والأحكام، فقد استخدم منذ البدء الأدوات الإجرائية التي ترتكز على إخضاع الظاهرة اللغوية للعملية العقلية، القائمة على الاستدلال والاستنباط، والمقارنة بين الجزئيات لضبط الكليات، وحصر العلل والمعايير"[2].

من هذا يمكن لنا أن ننتهي إلى أنّ ابن جنّي قد انتهج عدة مناهج ويمكن حصرها فيما يأتي:

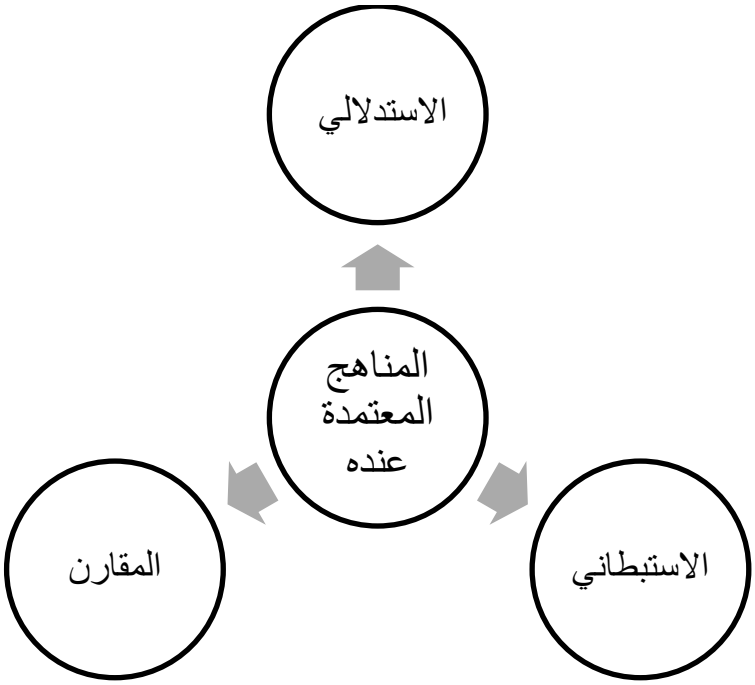

الشكل (1) المناهج المعتمدة عند ابن جني

وعلى ذلك لم يقتصر ابن جنّي فقط على هاته المناهج بل نجد المنهج الوصفي له نصيب من التداول في تلك الدراسات اللغوية لابن جنّي، وخصوصًا المجال الصوتي، ثم إنّ المنهج "الذي سار عليه ابن جنّي في درسه الصوتي هو المنهج الوصفي، إذ عالج الظاهرة اللغوية في وضعها الذي كانت عليه أيامه في معزل عن تطوراتها التاريخية، وهذا المنهج نفسه أحد المناهج المتبعة في دراسة اللغة إلى جانب المناهج الثلاثة الأخرى المقارن والتاريخي والتقابلي"[3]. يبرز لنا هذا بالمنهج الذي سلكه "دي سوسير" عندما فرّق بين المنهج التاريخي والمنهج الوصفي، ووصف اللغة في مرحلة معينة من مراحل تطورها، وهاهنا اختلف مع "دي سوسير" ولم نقل بأنه ألغى المنهج التاريخي، وهذا ما جعل التطابق بين المنهج الذي سلكه ابن جنّي و"دي سوسير" متطابقًا تمام التطابق، المنهج وحده لا يكفي لمعرفة عبقرية ابن جنّي، بل نحتاج إلى تلك الأسس التي انطلق منها ليؤسس علمه هذا.

3. أسس ومنطلقات الفكر اللغوي لابن جنّي:

أ. الفكر المعتزلي:

من بين المنطلقات التي أسس عليها ابن جنّي فكره، الفكر المعتزلي فإننا "نجد ابن جنّي معتزليًا من الرعيل الأول، ومعلوم أن المعتزلة هم حملة لواء الحرية الفكرية في فكرنا الإسلامي"[4].

https://doi.org/10.20428/jss.v31i7.2919

هذه الفكرة تقرّ بحقيقة تأثر ابن جنّي بالفكر الاعتزالي، وهذا يبدو جلياً في كتابه الخصائص، إذ نلفيه يذكر في مقدمته: "الحمد لله الواحد العدل القديم"[5]، قوله "الواحد العدل" تحملان دلالة انتمائه المعتزلي، ولاسيما أهل المعتزلة يطلق عليهم اسم أهل العدل والتوحيد.

ب. الفكر الشيعي لديه:

إذا كان ابن جنّي معتزلياً فهو حتماً شيعي؛ لأنّ" الشيعة هم ورثة المعتزلة، ولابد أن تكون قلة اعتداد المعتزلة بالأخبار المأثورة مما لاءم أغراض الشيعة"[6]، وبذلك فإنّ ابن جنّي دينياً متشيعاً مناصراً لعلي كرم الله وجهه.

ج. منطلق الفكر الحنفي:

أمّا من الناحية الفقهية فقد كان ابن جنّي: حنفيًا، والأحناف هم أبطال الحرية في الفكر الإسلامي، وهم رواد مدرسة الاجتهاد والاستنباط والقياس في الفقه[7]، وارتهنت في ذلك إلى كتاب الخصائص إذ يقول: "وكذلك كتب محمد بن الحسن ـ رحمه الله ـ انتزع أصحابنا منها العلل لأنّهم يجدونها منثورة في أثناء كلامهم، فيجمع بعضها إلى بعض بالملاطفة والرفق"[8].

تجسد الاجتهاد في جمع العلل وقياس الفرع على الأصل على منوال الفقهيين مستنبطين في ذلك الأدلة والبراهين، وهذا ما يشرح قولنا الذي سبق ذكره.

د. أساسيات الفكر النحوي لديه:

تعددت الآراء العلمية وتباينت في حقيقة الانتماء النحوي لابن جني، فقد كثر الخلاف حول مذهبه النحوي، وقد عقد الدكتور السامرائي فصلاً شافياً في رسالته التي عني فيه بابن جني نحوياً، وسرد في ذلك الفصل خمساً وخمسين مسألة مستدلاً على أنه بصري المذهب، وليس كوفياً ولا بغدادياً.

بناءً على هاته المعطيات العلمية يمكن لنا أن نقرّ بأنه مادام ابن جنّي معتزلياً، والمعتزلة تأبى التقيد وتنحى إلى التحرر الفكري، فإن الرّجل لم يتكئ على آراء مدرسة معينة، بل اقتبس من كل مدرسة عينة، ودمج كل هذه الأفكار للخروج بمذهب مستقل خاص به، وربما سر تفوقه وعبقرياته هو ذاك التداخل بين المدارس لديه.

4. ملامح الدرس الفونولوجي عند ابن جني:

بداية يُعرّف ابن جني اللغة على أنّها "أصوات يعبر بها كل أقوام عن أغراضهم، إذا ما فككنا هذا التعريف فسنلحظ أنه ثلاث مصطلحات هامة هي (الصوت، والتعبير، والأغراض)، بمعنى أنّ ابن جنّي بيّن لنا أنّ اللغة هي أصوات، ويقصد بها أسبقية المنطوق على المكتوب وهذه الميزة تشترك فيها كل اللغات، ولفظة التعبير يقصد بها التواصل الاجتماعي، وهي كذلك كلية من بين الكليات اللغوية، أمّا مصطلح أغراضهم فهذا قول صريح بأنّ للغة وظائف مضبوطة، وهذه الفكرة تعدّ النواة التي أسست الفكر الوظيفي لدى مدرسة براغ.

هذا ما يمسّ اللغة عامة، أما إذا توجهنا إلى التوضيح أكثر فسنتجه إلى المستوى الصوتي، وهنا وجدنا ابن جني في تفريقه للحروف نلمحه يصرح بأنه: ولولا الإطباق لصارت الطاء دالاً، والصاد سيناً، والظاء ذالاً، ولخرجت الضاد عن الكلام لأنه ليس من موضعها شيء غيرها، فتزول إذا عدت الإطباق إليه.

يقترب في هذه الفكرة ابن جنّي إلى حدٍ بعيد من تلك المبادئ التي ستّها أصحاب مدرسة "براغ" وقول "تروبسكوي" يؤكد بما نحن بصدد توضيحه، إذ يرى في هذا: "أنّ الصفة الوظيفية التي تسمح بتعريف الفونيم علمياً تتمثل في

كونه يدخل في تعارض فونولوجي واحد على الأقل، هذا التعارض الفونولوجي الذي تحدث عنه "تروبسكوي" هو نفسه ما صرح به ابن جنّي في تقابل الطاء مع التاء بحيث أن ميزة الإطباق في الطاء لها وظيفة فونولوجية.

وقد تنبهت المدارس اللسانية الحديثة لقضية السمات المميزة للفونيمات، فإنّ الفونام "مجموعة من الخصائص الفونولوجية المميزة التي تجعله يتعارض مع كل الفونيمات الأخرى"، وفي نفس السياق نرى ابن جنّي حين حدد لكلّ فونيم ميزته التي تميزه عن باقي الفونيمات الأخرى.

ومن هنا "على أنّ العين والقاف قد حسنتا الحال لنصاعة العين ولذاذة مستمعها، وقوة القاف وصحة جرسها، ولاسيما وهناك الدال والسين، وذلك أن الدال لانت عن صلابة الطاء، وارتفعت عن خفوت التاء، والسين أيضًا لانت عن استعلاء الصاد، ورقت عن جهر الزاي، فعذبت وانسلت، فالنصاعة لا تنسب إلا للعين، والقوة لا تنسب إلا للقاف، والليونة لا تنسب إلا للدال، والصلابة لا تنسب إلا للطاء، والخفوت للتاء.

هذه الوظيفة لم تمس فقط الصوامت بل حتى للصوائت حظ من ذلك، كما أقر به علم اللغة الحديث، وحتى هذا لم يفلت من عبقرية ابن جني حين قال: "في لفظتي ذِل، ذُل اختاروا الضمة لقوتها للإنسان والكسرة لضعفها للدابة ومن هنا فالقوة التي احتوتها الضمة لم تحتويها الكسرة، والوظيفة التي أضافتها الضمة للدلالة لم تكن للكسرة ولا للفتحة أن تضفيها على اللفظة.

مما سبق نستنتج أن ابن جنّي تنبه لتلك المميزات الفاصلة بين الحروف، وعدّ هاته الميزات كوظائف دلالية تحملها الفونيمات تحت طياتها، وهذا ما أقر به علم اللغة الحديث وخصوصًا مع مدرسة "براغ" والمدارس التي تبنت هذا الفكر فيما بعد.

وعليه فإنّ فكر ابن جنّي في تحديده لتلك المميزات الفاصلة بين الفونيمات لم يتوقف عند هذا الحد، بل تعدى ذلك لتحديد وظيفة اجتماع هاته الحروف في نسق لفظي معين، كما لم يسبق فكره هذا أحد من علماء اللغة الذين سبقوه أمثال الخليل وسيبويه، "إلا أن الذي جاء به ابن جني زيادة على الاستفادة من طريقة الخليل في التقليب، هو قوله أن هذه الأصول يختص كل منها بمعناه الذي استعمل فيه ولكنها جميعًا تلتقي في معنى عام جامع يضم الأصول الستة، فالقاف والواو واللام تدل على الخوف والحركة، والكاف واللام والميم تدل على القوة والشدة، إذا ما تم لنا قراءة هذا القول قراءة تداولية قصدية، فسنخلص لفكرة مفادها أنّ في اجتماع هاته الفونيمات المساهمة في صنع الدلالة الجامعة، لنسق معين وأي تغيير يطرأ على أحد العناصر الفونيمية، حتمًا سيمس تلك الدلالة الجامعة.

هذه الدّلالة الجامعة لا تعدّ كلية من كليات اللغة التي تشترك فيها كل الألسن البشرية بل هي تخص بعض الألسن ليس إلا، وبل حتى داخل اللسان البشري الواحد ليست عامة في كل منطوقات هذا اللسان وهذا ما أقر به ابن جنّي في قوله: "واعلم أنا لا ندعي أن هذا مستمر في جميع اللغة، كما لا ندعي الاشتقاق الأصغر أنه في جميع اللغة من هذه الفكرة نفهم أن الدلالة الجامعة بين الملفوظات هي قصرًا على بعض الألفاظ العربية فقط.

ومن هنا فالأصوات تابعة للمعاني فمتى قويت قويت ومتى ضعفت ضعفت، ويكفيك من ذلك قولهم قطع قطع، وكسر وكسّر زادوا في الصوت الزيادة في المعنى واقتصدوا فيه لاقتصادهم فيه، ومن هنا الصوت تابع للمعنى، والعكس غير صحيح.

وقد وجدنا "أندري مارتيني" يتحدث عن قضية تلك العلاقات الجوارية بين الفونيمات داخل النسق الصوتي الواحد، ويتطرق إلى قضية تلك التغيرات النطقية، فالتغيرات الصوتية لا تحدث عرضًا ولكنها دائمًا مشروطة، وتحاول اللسانيات التقليدية أن تجد تفسيرًا لها في التأثير المتبادل بين الأصوات التي يجاور بعضها بعضًا في سلسلة الكلام،

https://doi.org/10.20428/jss.v31i7.2919

وعلى الرغم من أن التأكيد على المستوى الاستنتاجي أي على المستوى الذي يعني بتوارد الصوتيمات في سلسلة الكلام يلحق الضرر إلى حد ما بالتكامل الصوتيمي للصوتيمات، إلا أن تأثير التجاور في النظام هو الذي يحظى بالأهمية الكبيرة، ما أبرزه (أندري مارتيني) في اللسانيات الحديثة نفس ما أثاره ابن جني قبل عدة قرون، وقوله هذا يؤكد ما قلناه ولكم واسع النظر في ذلك، حين قال: "وأعلم أنّ هذه الحروف كلما تباعدت في التأليف كانت أحسن، وإذا تقارب الحرفان في مخرجهما قبح اجتماعها ولا سيما حروف الحلق، والعكس صحيح، وإذا اختلفت أحوال الحروف حسن التأليف.

وقد ألفينا ابن جنّي ذكر "أن العرب حين صيغة (استفعل) للطلب في الغالب كمستسقى واستطعم، واستوعب، كانت قد رتبت في هذا الباب الحروف على ترتيب الأفعال، وذلك لأن الهمزة والسين والتاء جاءت زوائد قبل الأصل لتعبر عن معنى الطلب، وطلب الفعل والسعي إليه عادة يتقدمه ثم تقع الإجابة له، والفعل من غيرها يؤدي معنى الإجابة، كقولك: طعم وتقديم ما يضاهي "أول الحدث وتأخير ما يضاهي آخره، وتوسيط ما يضاهي أوسطه، سوقًا للحروف على سمت المعنى المقصود".

الخاتمة

الخلاصة والتوصيات

خلاصة الحديث في هذا الإطار هو أنّ هذا القسم يندرج ضمن "مباحث ابن جنّي الصوتية تحت علم الفونولوجيا إذا أخذنا برأي من يقول أنه يهتم بدراسة الأصوات في التشكيل.

وعلاوة على ذلك "لا تقتصر دراسته للأصوات اللغوية على الصوامت والصوائت فقط، بل تتعداها إلى عناصر أخرى ذات أثر في التخاطب والفهم، منها هذان العنصران، وإن كانت دراستهما لم تلقَ عناية كافية عند ابن جني وغيره من العلماء العرب، ولعل ما يكفي هذا الرجل فخراً، ويكفينا معه أنه تحدث قبل الغربيين بقرون عن أحدث نظرية في الصوتيات في القرن العشرين وإن لم يسمها وهي نظرية الصفات المميزة للصوت.

وعلى ذلك نلاحظ أن بعض الحروف المستقبحة التي ذكرها ابن جني سائد في نطقنا اليوم، "فمن الناس من ترى في نطقه فوضى وبعداً عن الدقة، وخصوصًا الأصوات المتصفة بالأطباق والتفخيم، فيجعل الطاء كالتاء، والصاد كالسين، والظاء كالزاي، والضاد كالدال، وقد يرقق بعضهم الراء في كل سياق دون النظر إلى المواضع التي ينبغي أن تكون فيها مفخمة، فكما نبعت "أفعال الإجابة أفعال الطلب، كذلك نبعت حروف الأصل الحروف الزائدة التي وضعت للالتماس والمسألة. وعليه "وقالوا صر الجندب فكرروا الراء لما هناك من استطالة صوته، وقالوا صرصر البازي فقطعوه لما هناك من تقطيع صوته، ومن طريف "ما مر بي في هذه اللغة التي لا يكاد يعلم بعدها، ولا يحاط بقاصيها، ازدحام الدال والتاء والطاء والراء واللام والنون، إذا مازجتهن الفاء على التقديم والتأخير، فأكثر أحوالها ومجموع معانيها أنها للوهن والضعف ونحوهما، ينبغي لزيادة توسيع الفكرة عند ابن جني لتكون الدراسة شاملة وموسعة.

المراجع

ابن جنّي، أ. ف. ع. (د.ت)، الخصائص، دار الهدى للطباعة والنشر.

ابن جنّي، أ. ف. ع. (د.ت)، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها (ع. النجدي ناصف، محرر؛ ع. ف. إ. شلبي، مشارك) (ط 2، ج 2).

ابن جنّي، أ. ف. ع. (د.ت)، سر صناعة الإعراب (ح. هنداوي، محرر) (ج 2).

حسان، ت (1974م)، مناهج البحث في اللغة (ط 1)، دار الثقافة.

مونان، ج. (د.ت)، علم اللغة في القرن العشرين (غزاوي، مترجم)، مؤسسة الوحدة.

كانتينو، ج (1966م)، دروس في علم أصوات العربية (ص. القرمادي، مترجم)، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية.

النعيمي، ح. س (1990م)، ابن جني عالم العربية (ط 1)، دار الشؤون الثقافية العامة.

حجازي، م .ف. (د.ت)، مدخل إلى علم اللغة (ط 1)، دار قباء للطباعة والنشر.

السواحلي، م (2015م)، ابن جني ناقداً (ط 1)، دار الآفاق العربية.

الدوريات

مجلة التراث العربي (1984م)، العددان 15-16.

https://doi.org/10.20428/jss.v31i7.2919